

الإسلام ومواجهته لحركات التبشير الأوروبي في غرب أفريقيا إبان الاستعمار الإنجلو - فرنسي

بقلم: أ.د. سيد أحمد علي الناصري

من الأقوال المأثورة عن الزعيم الأمريكي الأسود «**مالكوم إكس**» أنه خاطب مجموعة من مستمعيه البيض قائلاً (**عندما جاء أجدادكم إلى أفريقيا كنا نملك الأرض، وكانوا يحملون الصلبان، أما الآن فنحن نحمل الصلبان، وهم يملكون الأرض**) والعبارة رغم ما فيها من سخرية تهكمية، إلا أنها تحمل في طياتها بعض الجوانب الصحيحة، لكنها غير واضحة، وسوف نحاول في هذا البحث الموجز، أن نبين إلى أي حد حاولت المسيحية الوافدة مع المستوطنين الأوربيين البيض، مهاجمة الإسلام في غرب أفريقيا. والذي كان قد استقر على الأرض الأفريقية منذ أكثر من سبعة قرون من الزمان قبل وصول المستعمرين الأوروبيين إلى أفريقيا، وأصبحت طريقة الحياة الإسلامية تراثاً أفريقياً قومياً ضارب القدم، وجدير بالدفاع عنه ضد دين وفد مع غرباء، بيض اللون، يحملون البنادق، ويجرون المدافع، وهم يلبسون «الكاكي»، وفي عيونهم جشع لخيرات أفريقيا، مدعين أنهم جاءوا باسم حضارة العالم المسكون.

يقول المؤرخ فريلش Froelich [(١)] إن المستوطنين الأوربيين دهشوا. عندما وجدوا أن الإسلام قد سبقهم في تهذيب القبائل الوثنية الأفريقية، كما راعهم درجة التعليم والمهارة، التي كان يتمتع بها المسلمون الأفريقيون، سواء في نيجيريا، أو تشاد، أو السنغال، أو النيجر، حتى اضطر المستعمرون الأوروبيون إلى مهادنة الإسلام، والتوقف عن محاربته وعن مناصرة المسيحية عليه، ومن ثم أحرز الإسلام تقدماً عميقاً خلال الخمسين سنة التي تلت بداية الاستيطان الأوروبي لأفريقيا، يكاد يفوق تقدم القرون التي

سبقت، في خلال الخمسين عاماً الأولى للاستيطان الأوروبي لأفريقيا تضاعف عدد المسلمين في غرب أفريقيا.

فبعد هزيمة المقاومة الإسلامية الأفريقية المسلحة على يد الاستعمار الإنجلو ـ فرنسي، ومقتل آخر المجاهدين الأفارقة، وهو الحاج عمر بن سعيد طال لم يجد الأفارقة غير الإسلام حصناً، يقاومون به حضارة الغزاة وديانتهم القادمة معهم، إذا ارتبطت الكنيسة بالاستعمار الجشع، وبتجارة العبيد وذلك بالرغم من أن سلطات الاحتلال الأوروبي احتكرت التعليم والمدارس، وربطتها بالكنيسة، وجعلت اعتناق المسيحية شرطاً أساسياً لمن يريد الحصول على قدر معين من التعليم، كما استخدمت الطب، فجعلت المستشفى كنيسة ومدرسة، أو جعلت الكنيسة مستشفى ومدرسة، ومن سخرية التاريخ أن نظام جعل دور العبادة داراً للتعليم، ومورستانا للعلاج، نظام أخذه الأوربيون من الشرق الإسلامي، إبان الحروب الصليبية، وطبقوه في حركة التبشير المسيحي. وبالرغم من كل هذه المغريات، لم يتزحزح سكان غرب أفريقيا قيد أنملة عن إسلامهم، بل على العكس ازدادوا إيماناً على إيمانهم، وتمسكوا به دفاعاً عن وجودهم وهويتهم الحضارية في مواجهة غاز مستعمر يريد أن يصبغهم بلون فكره وحضارته.

ويقول المؤرخ كرودر Crowder، إنه في خلال الخمسين سنة الأولى لبداية الاستعمار **كان حوالي ٣٤٪ من سكان غرب أفريقيا مسلمين**، وهو ما يقرب من ٢٠,٠٦٧,٠٠٠ نسمة، بينما لم يزد عدد من اعتنقوا المسيحية على ٤,٥٪ رغم كل الدعم والتأييد للمسيحية[٢].

ولقد حار المؤرخون الأوروبيون في أسباب هذه الظاهرة، التي خيبت آمالهم. فتساءل كرودر عن أسباب الانتشار التلقائي السريع للإسلام في أفريقيا، بينما يتعثر انتشار المسيحية؟ فيقول «لقد كان للإسلام ميزة كبرى. وهي أنه كان قد استوطن أفريقيا منذ وقت أسبق بكثير من وصول المسيحية إلى غرب أفريقيا، كما أن نشاط التبشير المسيحي (كما يدعي) لم يصبح ملحوظاً بالمقارنة. إلا منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر. ويدعي كرودر أيضاً أن الاحتلال الأوروبي لغرب أفريقيا فتح أمام المسلمين الحواجز. التي كان الوثنيون الأفريقيون قد وضعوها في وجه الزحف الإسلامي[٣]. في أرجونجو ـ وهي إحدى المقاطعات التي تسكنها قبائل الهوسا النيجيرية ـ **دخل السكان بالكامل في**

الدين الإسلامي عام ١٩٢٢، وكانوا قد ظلوا لمائة عام يرفضون اعتناقه على يد أشقائهم من قبائل الفولاني المسلمة. ويستطرد كرودر فيقول «كذلك فإن المقاومة المسلحة لانتشار الإسلام من جانب الوثنيين قد وضع لها نهاية (يقصد على أيدي الاستعمار الأوروبي). وفضلاً عن ذلك فإن الزحف الإسلامي بين القبائل الأفريقية لم يلتزم بحدود سياسية معينة كما هو الحال بالنسبة للمسيحية في مناطق النفوذ الأوروبي المختلفة. إلى جانب أن الإسلام لم يرتبط بالاستعمار أو الاستغلال. كما هو الحال بالنسبة للمسيحية، التي اتُخذت ستاراً لسلب الشعوب حريتها وخيراتها(٤)، بل على العكس كان الإسلام دين المظلومين المقهورين، الباحثين عن العدل والحرية، وهناك شيء آخر ذكره المؤرخون الأوروبيون في دراستهم لظاهرة الانتشار التلقائي للإسلام في أفريقية، وهو أنه دين تعمقت جذوره في الأرض الأفريقية من مئات السنين قبل مجيء الأوروبيين، بينما بقيت المسيحية هي دين الرجل الأوروبي المستوطن(٥).

ويعترف كرودر في مرارة، أن الإسلام يناسب المجتمع الأفريقي أكثر من المسيحية(٦)، **فأركان الإسلام واضحة سهلة، وهو دين يسر لا عسر**، فهو لا يطلب من الوثني سوى أن ينطق بالشهادتين «**أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله**»، بعدها يصبح عضواً له كامل الحقوق والواجبات في المجتمع الإسلامي. بينما نجد المسيحية تشترط عملية طويلة تبدأ بالتعميد، والتكفير المطلق لسابق حياته ومعتقداته ثم تبدأ في تشكيله من جديد، وتفرض عليه قراءة التوراة والأناجيل، وفهم الفلسفات الكنسية المعقدة للمذاهب والمجامع الكهنوتية المتصارعة، وهو أمر مرهق للعقلية الأفريقية التي لا تعرف التعقيد. وقد تساءل أحد القساوسة الأفريقيين محتجاً «**لماذا تُحمِّل الكنيسة المتحولين إلى المسيحية ما هو فوق طاقتهم؟**»(٧) ويضيف كرودر سبباً آخر وهو أن الأفريقي لم يقتنع أبداً بفكرة الزواج المفرد، أي تحريم الجمع بين أكثر من زوجة، وتحريم الطلاق، وتحريم الزواج من المطلقات، فطبقاً للشريعة المسيحية «من تزوج بمطلقة فإنما يزني بها»، بينما تسمح الشريعة الإسلامية بالزواج حتى أربع، بشرط أن يعدل الزوج بينهن، ويبيح الطلاق، فنجد البعثات التبشيرية المسيحية ترغم الأفريقيين على تسريح باقي الزوجات. فيما عدا أقدمهن عمراً، وهي الزوجة الأولى(٨). وهو أمر صعب بالنسبة للرجل الأفريقي.

كما يحلل المؤرخون الأوربيون تغلب انتشار الإسلام على المسيحية في أفريقيا **بأن**

التبشير الإسلامي يسعى لإقناع جماعات وقبائل بأكملها للدخول فيه. وذلك عن طريق إقناع شيخ القبيلة أو زعيم القوم، وبالتالي يعتنق الإسلام أتباع هذا الزعيم، فيكون انتشاره انتشاراً جماعياً، بينما تركز المسيحية على التنصر الفردي، مما يجعل انتشارها بطيئاً للغاية بالنسبة للإسلام. ولقد لاحظ أحد القساوسة الأفريقيين هذه الظاهرة الإسلامية في التبشير، وكان اسمه الأب كروذر (Crowther)، فحاول تقليدها في طريقة التبشير بالمسيحية فكان محل نقد شديد من جانب القساوسة الأوربيين، فاتهموه بالتساهل في تطبيق شروط المسيحية، وتعاليم الكنيسة كما وضعتها المجمعات الكهنوتية والكنسية، كما اتهموه بالتقاعس في محو الأفكار الدينية الأفريقية قبل تطبيق الفكر الكنسي»(٩) فبينما نجد المبشرين المسيحيين صارمين في «غسل دماغ» الأفريقي. من كل تراثه القومي، نجد الإسلام يتعايش مع هذا التراث، ولا يرجو من المسلم أن يكون قديساً في يوم وليلة إنما يحاول أن يكون مسلماً كلما استطاع، فالناس سواسية كأسنان المشط لا فرق بين أبيض وأسود، ولا أصفر ولا أحمر إلا بالتقوى، إذ يقول الله تعالى ﴿ **يـأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبآئل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾(١) بينما نجد المسيحية الأوربية تمارس التفرقة العنصرية، وتعتبر الرجل الأسود ـ حتى وإن كان مسيحياً ـ أدنى مرتبة من الرجل الأبيض. بل مُورست التفرقة العنصرية داخل الكنائس فنجد في جنوب أفريقيا كنائس للبيض، وأخرى للسود. بينما نجد المسجد الإسلامي جامعاً لكافة المصلين «فإذا ما مست الأرض الجباه فالرعية والولاة متساوون في خشوعهم أمام الله».

لقد واجه الإسلام المسيحية على الأرض الأفريقية متحداً، لأن الاختلاف بين المذاهب الإسلامية، ليس في جوهر الإسلام، إنما خلاف بسيط في آراء الأئمة، والمسلمون مهما اختلفت مذاهبهم ملتزمون **بالقرآن الكريم والسنة النبوية.** بعكس الحال في المسيحية التي انقسمت إلى ملل وكنائس، بعد اختلافها في جوهر العقيدة ذاتها، بل إن درجة العداء بين الكنيسة الكاثولوكية والبروستانتية وصل إلى **حد تكفير كل فريق للآخر**، ولعلنا نجد مثالاً على ذلك في أيامنا هذه من درجة الصراع الدموي بين سكان البلد الواحد، مثلما هو الحال في أيرلندا التي يتقاتل شعبها المنقسم إلى طائفة كاثوليكية،

---

(١) الحجرات. من الآية ١٣.

وطائفة بروستانتية. بل وصل العداء إلى حد التفرقة بين الطائفتين في المدارس والجامعات والوظائف. ومن ثم فقد انتقل الصراع الديني بين الكنيسة الكاثوليكية والكنيسة البروستانتية من أوروبا إلى بعثات التبشير في أفريقيا، كما دخل التنافس السياسي بين فرنسا وبلجيكا وأسبانيا والبرتغال وإيطاليا من ناحية **(وهي الدول التي تدين بالكاثوليكية)**، وبين انجلترا وألمانيا وهولندا من ناحية أخرى **(وهي الدول التي يدين أغلب سكانها بالبروستانتية)**. حتى البروستانتية ذاتها انقسمت فيما بينها إلى عدة طوائف وشيع، لكل منها كنيسة مستقلة وأتباع. وحتى عام ١٩٥١ كان يوجد في عبدان ثماني كنائس مختلفة المذاهب ممثلين لاثنى عشرة طائفة منفصلة عنها.[١٠] ولعل هذا الانقسام في الكنائس والطوائف المسيحية ـ كما يقول باريندر Parridner قد يبدو أمراً عادياً وطبيعياً للأوروبي، لكن بالنسبة للرجل الأفريقي قد يبدو غريباً وشاذاً. وكثير من المسيحيين الأفريقيين لم يفهموا الفرق بين هذه المذاهب، وتنقل بعضهم من مذهب إلى مذهب، بل في جنوب السودان حتى أيامنا هذه نجد المسيحيين **يذهبون إلى الكنيسة يوم الأحد، وفي يوم الجمعة يتوجهون تلقائياً إلى المسجد**. رغم التعليمات الصارمة التي توجهها لهم البعثات التبشيرية. وكثير من أبناء جنوب السودان ممن التقيت بهم خلال رحلاتي لبلادهم أقرب إلى الإسلام منه للمسيحية، لكن لأسباب خاصة خارجة عن الإيمان يعلنون أنهم مسيحيون.

وضع المسلمين تحت الإدارة الأوربية للمستعمرات في غرب أفريقيا:

وبالرغم من الانتصار العسكري للاستعمار الأوروبي في غرب أفريقيا، إلا أن الإسلام حقق انتصاراً شعبياً، دفع سلطات الاستعمار إلى الإذعان، وفرض عليهم احترامه كدين يعتنقه غالبية سكان مستعمراتهم في غرب أفريقيا، بل وجدت السلطات المستعمرة نفسها مرغمة على الانصياع لرغبات المسلمين، في عدم تشجيع بعثات التبشير المسيحي، وتحريم دخولها المناطق الإسلامية، إلا إذا وافق أمراء هذه المناطق[١١]. فمثلاً عندما حاول «لوجارد» Lugard إرسال بعثات تبشيرية إلى ولايات شمال نيجيريا، عاد وسحب هذه البعثات، عندما وجد أن مقاومة المسلمين لها شديدة، ومن هنا خشيت السلطات الاستعمارية من غضب جماهير الأفريقيين في شمال نيجيريا[١٢].

أما بالنسبة لعملية انتشار الإسلام بين القبائل الأفريقية الوثنية، فلم تر سلطات

الاستعمار مانعاً من ذلك، لأنها أدركت أن الإسلام يُسهِّل لها عملية نشر الحضارة الحديثة بين السكان، فلقد كتب السير هاري جونستون في مجلة «الانتداب الثنائي» Dual Mandate (١٣) والتي كان يصدرها المبشر البريطاني لوجارد يقول «وبالنسبة للمسئول الحكومي، أو للتاجر البريطاني في غرب أفريقيا، فإنه ما من شك في أن الزنجي المعتنق للإسلام، سواء أكان من عنصر زنجي، أو من قبائل الفولاني، أو الهوسا، أو العرب، أو البربر، أكثر جاذبية في شخصيته من الزنجي المسيحي من أهل سيراليون، أو ليبيريا أو ساحل الذهب أو جنوب نيجيريا(١٤). ولنبدأ بالزي الذي يرتديه المسلمون إنه زي وطني ومناسب لظروف المناخ، أكثر مما يناسب الرداء الأوروبي لابسيه من الزنوج المسيحيين، والذي يظهرون فيه بطريقة مضحكة. وإني لأتذكر كيف كنت أشعر خلال رحلاتي المبكرة في غرب أفريقيا بالاحترام لقبائل اليوريا (المسلمة) وهم في زيهم الوطني، وهو إحساس يفوق احترامي للزنوج المسيحيين أو الوثنيين في لاجوس وفي أجبالاند(١٥).

وفي المناطق الشمالية لساحل الذهب كتب المندوب السامي البريطاني السير واترستون Watherston (١٩٠٥ ـ ١٩٠٩) **معترفاً بأن الإسلام دين أكثر تقبلاً عند السكان الوطنيين لأنه يناسبهم**، وهو يساعد بريطانيا في نشر الرقي والتمدن، ويشجع السكان على ممارسة حياة أكثر تحضراً، كما أنه يشجع على السلام وتنشيط حركة التجارة(١٦). ولقد عرف عن السير وزرستون أنه كان متعاطفاً مع المسلمين إذ اتهمته البعثات التبشيرية المسيحية بأنه يُضيّق عليها الخناق في بعض المناطق، بالرغم من أن أعداد الوثنيين تفوق أعداد المسلمين في هذه المناطق.

أما بالنسبة لسلطات الاستعمار الفرنسي في أفريقيا الوسطى، فقد نظرت في أول الأمر إلى الإسلام، كعقبة كئود في طريق استقرارها، والتبشير بمذهبها الكاثوليكي، كما أنها كانت تخشى من تأثير مد الثورة المهدية من السودان إلى السنغال. وكانت فرنسا تحكم أمبراطورية واسعة في أفريقيا تمتد من جيبوتي إلى السنغال، مارة بأفريقيا الوسطى. **ولقد نجحت سلطات الاستعمار الفرنسي المعادية للإسلام في منع انتشاره في ساحل الذهب. وفي سيرا ليون حتى عام ١٩٠٠** وبالرغم من توسع الأمبراطورية الاستعمارية الفرنسية، إلا أن المجاهدين المسلمين في أفريقيا قد حدوا من توسعها، كما أن مواجهة فرنسا للمجاهدين المسلمين لم تخل من روح الصليبية والكراهية، فعمدوا على سحق أي ثورة

أو حركة إسلامية، قام بها المجاهدون. كما دار في ساحة الفكر الفرنسي في مطلع الاحتلال الفرنسي لأفريقيا، جدل فكري حول «**الخطر الإسلامي**» **كما عبر زعماء السلطات الاستعمارية من أمثال مانجان** Mangin **وأرشينارد** Archinard ، **وماج** Mage عن وجوب وقف الزحف الإسلامي التلقائي في أفريقيا[١٧]، بينما جادل مفكرون آخرون بأن الإسلام ليس خطراً. بل هو أهم الظواهر الفكرية والحضارية القائمة في غرب أفريقيا، وأن على فرنسا أن تتعامل معه على هذا الأساس. وتظهر هذه الآراء المعتدلة من خلال تنظيم إدارة الشئون الإسلامية والصحراوية Service des Affaires Musulmanes et Saharienne **التي أسست في باريس عام ١٩٠٠**، والمتمثل في **إدارة الشئون الإسلامية التي أسست في داكار عام ١٩٠٦**. ولقد كانت فرنسا أسرع من بريطانيا في إنشاء هذه الإدارات كسبا لودّ المسلمين في المستوطنات، فلم تعرف بريطانيا تأسيس مثل هذه الإدارات، ولا خبرت ساحة الفكر البريطانية مناقشات عن الإسلام من أمثال مناقشات **روبيرت أرنود** Robert Arnoude ، **ولوشاتيلييه** Le Chatelier ، **وبول مارتي** Paul Marty وغيرهم. وقد اقترح **بونتي** Ponty الذي كان حاكماً عاماً للممتلكات الفرنسية عام ١٩٠٨ تطبيق سياسة الفصل بين الطوائف بحيث لا يجوز لحاكم أفريقي مسلم حتى ولو كان معيناً من قبل السلطات الفرنسية أن **يتحكم في أفريقي غير مسلم**[١٨]، كما طالب بعدم تشجيع استخدام اللغة العربية في المراسلات الرسمية، لأن استخدام اللغة العربية يعطي الفرصة للمسلمين وحدهم لتولي الوظائف. أما **كلوزال** Clozel حاكم السودان الغربي، وفيما بعد الحاكم العام لغرب أفريقيا الفرنسية، فقد طالب بتدعيم **المذهب الفيتشي** الوثني Fetichisme فكرياً وسياسياً ليقف في **وجه الإسلام الزاحف**، وإلى تقنين الشعائر الوثنية الأفريقية التي تمارسها القبائل الوثنية، مثل قبائل بامبارا، ومالتكي، وبوبو، ورفعها إلى درجة الديانات القومية الأفريقية[١٩]. غير أن كل هذه المحاولات المعادية للإسلام ــ على حد رأي **جويللي** Gouilly ، **انتهت بتدعيم جبهة الإسلام**[٢٠]. فقد تبين للفرنسيين أن تصوير الإسلام على أنه خطر يهدد المصالح الفرنسية كان وهماً مبالغاً فيه من جانب المتطرفين، وبدأت الاتصالات مع المسلمين من أجل إقامة جسور الصداقة. فقد اكتشف الفرنسيون **أن الزنوج المسلمين أكثر تهذيباً ورقة من الزنوج المسيحيين أو الوثنيين**. ولا يعادون المسيحية. وكل ما يرجونه هو العيش في

سلام على قدر متساوٍ مع الطوائف الأخرى(٢١). وبقدر ما تعاملت فرنسا مع المسلمين، بقدر ما كانت تتوجس خيفة من أي حركة دينية إصلاحية يقوم بها المسلمون، قد تؤدي إلى إشعال الثورة الوطنية ضد الفرنسيين. ولقد كانت هناك عدة أسباب للكف عن محاربة الإسلام في المستوطنات الفرنسية، منها أن المذهب الفيتشي الوثني ليس ديانة سماوية واضحة المعالم مثل الإسلام، كما أن الإسلام بمبادئه السامية وشريعته العادلة، يدعو للاحترام، والتبجيل، كما ساد النفور بين السلطات السياسية، والجهاز الكنسي المسيحي، الذي راح يدُس أنفه في كل صغيرة وكبيرة، بينما أعلنت السلطة السياسية تفضيلها لبقاء الإسلام من أجل التخلص من تدخل القسس في الحكم(٢٢) Pour embeter les cures أو بمفهوم أوضح، رأى البعض أن الإسلام هو الجسر الذي يربط بين المجتمعات الأفريقية المنطوية على نفسها، وبين العالم الأكبر، ويساعد الأفريقيين على الخروج من القوقعة الضيقة، للمساهمة في الساحة العالمية، مما يساعد على إدخال الأفكار الحضارية الحديثة، ويوسع مفهوم تبادل المصالح الاقتصادية(٢٣). وأوضَح مثلٍ على ذلك نجده في علاقة فرنسا بأبناء الطائفة المريدية، إحدى الطوائف المنبثقة عن الطريقة القادرية في السنغال، وقد أسس هذه الطائفة أحمدو بامبا، على أساس فكري هو «**بقدر ما يفعل الإنسان من خير على الأرض، بقدر ما ينال الجزاء في السماء**» كما تقوم المريدية على أساس الولاء المطلق بين المريد وشيخ الطائفة. لقد كانت هذه الطائفة الإسلامية شديدة العداء للفرنسيين، وبادلتها فرنسا نفس الكراهية، فقامت بنفي أحمدو بامبا مرتين خارج البلاد، لكن أتباعه ازدادوا تمسكاً بتعاليم شيخهم، ثم اكتشف الفرنسيون أن أبناء هذه الطائفة يملكون خبرات **نادرة** في زراعة الفول السوداني، وأنهم أحسن منتجيه في السنغال كله. فبدأ أصحاب المزارع الفرنسية يشجعونهم على هجر قراهم القديمة، وبناء قرى زراعية على طراز حديث في الأراضي حديثة الاستصلاح» وسرعان ما أصبح أبناء هذه الطائفة من أهم المظاهر الاقتصادية في اقتصاد السنغال الفرنسي. وتوطدت العلاقة بينهم وبين الفرنسيين، الذين كانوا لا يخفون انحيازهم لهم(٢٤)، حتى عندما توسع أبناء هذه الطائفة واستولوا على أراضي قبائل أخرى، كانت السلطات الفرنسية تغمض عيونها وكأن شيئاً لم يكن(٢٥).

لقد تبين للدول الأروبية أن ميراث الحقد على الإسلام، والذي ورثته عن الحروب

الصليبية، التي قادتها الكنيسة، **ميراث زائف، وأن الإسلام ليس كما صورته كتب تراثهم، بل إنه دين واضح المعالم،** وله مزايا حضارية لا حصر لها. إذْ وجدوا أن الطبقة المتعلمة الوحيدة في غرب أفريقيا هي المسلمة، لأن الإسلام حضّها على قراءة القرآن الكريم، فتعلمت اللغة العربية، ومبادىء الفقه. وكان هناك فقهاء أفريقيون، تعلموا في الأزهر الشريف في مصر أو جامعة الزيتونة في تونس، يقومون بدورهم بتعليم أبناء المسلمين على نفس المنهج الذي كان يدرس في الجامعات الإسلامية. ولهذا فقد كان المسلمون في غرب أفريقيا هم المصدر الأول للسلطات الأوروبية، للحصول على موظفين يساعدونهم في إدارة المستوطنات، ويكونون حلقة اتصال بين السلطة الأوربية والشعب الأفريقي.

كذلك انبهر المستعمرون الأوروبيون بدقة الشريعة الإسلامية، وعدالتها وسهولة تطبيقها، ففضلوها على العرف القضائي الأفريقي المعقد، لتنوع أشكاله، وغموض تفسيراته. ووجدت السلطات أنه من الأيسر الأخذ بالنظام الإسلامي، وتعيين أعداد من القضاة في القرى والمدن، والأقاليم(٢٦).

وأخيراً وليس آخراً **رأى المستعمرون الفرنسيون أن غالبية سكان غرب أفريقيا مسلمون، وأن بقاءهم فيها يرتبط برضاء المسلمين عنهم،** فحرصوا على احترام الإسلام والمسلمين، كسباً لرضاء الجماهير الأفريقية، فضربت السلطات السياسية الحاكمة بآراء الكنيسة والمبشرين عرض الحائط، وأدارت ظهرها لحقد العصور الوسطى، ومدت يديها لتستعين بالمسلمين. فتعاونت مع زعماء القادرية، والتيجانية، وعملت على كسب رضاهم، بل وساعدتهم إدارياً وعسكرياً ضد خصومهم حتى وإن كانوا من بين المنشقين عليهم، مثل الطريقة «الحمالية»، التي أسسها الشيخ «حماالله» بهدف العودة بالطريقة التيجانية إلى أصولها الأولى. وبالرغم من أن الشيخ حما الله لم يكن معادياً للفرنسيين، بقدر ما كان معادياً لزعماء الطائفة التيجانية المنشق عليها، إلا أن زعماء التيجانية أرغموا السلطات الفرنسية على نفي الشيخ حما الله مرتين خارج البلاد، مرة في عام ١٩٢٥، ومرة أخرى في عام ١٩٤٢ إلى أن مات في سجنه بفرنسا(٢٧).

ولقد حاول الفرنسيون كسب رضاء المسلمين في غرب أفريقيا، **ببناء عدد من المساجد الجميلة. وبإرسال بعثات رسمية للحج. وافتتحوا المدارس الفرنسية لتعليم أبناء**

المسلمين، وزخرفوا الزوايا الدينية. كل هذا من أجل إرضاء المسلمين، وخوفاً من ثوراتهم، التي قد تؤدي إلى إعلان الجهاد ضدها. وبذلك انتصر الإسلام على المنتصرين بالسلاح. في ظل الحكم الفرنسي لأفريقيا الغربية اعتنق شعب البامبارا الدين الإسلامي بعد مقاومته له لقرون عديدة قبل مجيء الفرنسيين.

كما ساعدت عملية هجرة الوثنيين إلى القرى الإسلامية النشطة على تقبلهم الإسلام في مجتمع المدينة الجديد، الذي يحتاج المرء فيه إلى ديانة قوية وعملية مثل الإسلام(٢٨). لأن عقيدة الأفريقي الوثنية كانت ترتبط بموطنه وبالساحر الكاهن الذي يتحكم في قبيلته. أما في المدن الجديدة فقد أصبح الوثني متحرراً من سلطة وهيمنة ساحر القبيلة. كما أن دخوله في المسيحية كان يتطلب طقوساً دينية، لم يستسغها، في حين أن الإسلام كان يفتح ذراعيه لكل من يريد الدخول فيه، وأيضاً كان للتنقل الترحالي الموسمي بحثاً عن العمل، أثر كبير في انتشار الإسلام في غرب أفريقيا، والمثل على ذلك نجده في قبائل الموسى Mussi ، **التي دخلت الإسلام من خلال هجرة أبنائها الموسمية للعمل، يسافرون وثنيين، ويعودون مسلمين ليدعوا من يعولونهم إلى الدخول في الإسلام.** فعندما يسافر الوثني مع مجموعة من العمال الموسميين، بهم مجموعة كبيرة من المسلمين، أو يقودهم رئيس مسلم، يبدأ في معرفة بعض مظاهر العقيدة، التي كانت تعطي لصاحبها قوة معنوية كبيرة، تساعده في الدفاع عن نفسه ورفع رأسه. كما أن التجمع الإسلامي والتعاون والتراحم بين المسلمين، وعدم اختلاطهم بالوثنيين في الطعام أو السكنى» حث المهاجر الوثني الغريب في المجموعة، أن يكسر عزلته الاجتماعية والنفسية، فيشهر في الطريق إسلامه، لينضم إلى الجماعة الإسلامية المتعاونة، وعندما يعود لقريته يشرع في دعوة الذين يعرفهم للدخول في دين الله.

ولما بدأت فرنسا في تجنيد أبناء غرب أفريقيا منذ الحرب العالمية الأولى، عينت أئمة لهم في الجيش يعظونهم ويؤمون بهم الصلوات الخمس كل يوم، مما ساعد الوثني المجند في الجيش على معرفة قدر عن الإسلام كاف للدخول فيه. كما أن أئمة الجيش كانوا نشطين في التبشير أينما ذهبوا في عام ١٩٢٨ عندما عسكرت فرقة «الاستطلاع السنغالية» Senégalais Tirailleurs في فريجيس Fréjus في فرنسا. قام الجنود السنغال بناء على أوامر قائدهم، ببناء مسجد لهم، صمم على نسق المسجد الكبير في

جنى DJenne في السنغال، والذي صممه المهندسون المسلمون، بل إن الزي العسكري الذي اختاره مصمموا الأزياء الفرنسيون للقوات السنغالية كان مستوحى إلى حد كبير من الزي الإسلامي السنغالي.

وكما سبق أن ذكرنا، كان الإسلام يحقق لمعتنقيه الكبرياء والكرامة، كما شعر الوثني بالدفء الإنساني. بعد اعتناقه الإسلام، ولهذا أصبح مسلماً مخلصاً لا يزعزعه شيء عن إسلامه، فقد كان ضالاً حتى وجد الهدى، وكان ضعيفاً منكسراً، فوجد في الإسلام القوة، وكان هائماً على وجهه في الغابات، فأصبح عضواً عاملاً في مجتمع إسلامي مسئول عنه، وكان عائلاً فأغناه دين الله، وبخاصة بعد أن رأى فرنسا المتصلبة تحني رأسها للإسلام، وتتملق المسلمين. وكما يحدث في الهند اليوم حيث يتدفق أبناء طبقة المنبوذين للدخول في الإسلام، تحرراً من الوضع المهين الذي صنفتهم فيه الديانة الهندوكية. تدفقت الطبقات الدنيا من الزنوج الأفارقة، والعبيد على الإسلام، طلباً للحرية وللعتق وللتحرر، ولاستعادة الكرامة المفقودة والدخول في دين يعامل الناس سواسية، كأسنان المشط. فيذكر لنا **سكنر** Skinner أن جميع العبيد والمستعبدين من أبناء قبيلة النوبير (أو الموسى) دخلوا الإسلام. **وكان يكفي للمنبوذ أن يعتنق الإسلام، ويذهب إلى مكة لأداء فريضة الحج، ليعود وقد حمل لقب «حاج»** وهذا كاف لأن يجعله ذا صوت قوي، يخيف السلطات الفرنسية ذاتها.

وإزاء ذلك خفّت درجة الغليان الإسلامي في غرب أفريقيا، وهدأت الحركات الإسلامية الداعية إلى الجهاد ضد الإنجليز والفرنسيين. وبالرغم من ذلك فإننا نجد بعض حركات الإصلاح الديني الإسلامي تظهر مثل «الهمالية» Haimallism والسنوسية، وتثير قلق وخوف السلطات الأوروبية الحاكمة، وفيما عدا ذلك أصبحت القوات الإسلامية هي التي تحمل تيارات الحضارة الغربية الحديثة. أما بالنسبة للبعثات التبشيرية المسيحية، فقد ظلت قابضة على المدارس التي تخرج طبقة من الأفارقة «المتفرنجين» سلوكا، ولساناً ورداء، **وبالرغم من ذلك فإن عدد الوثنيين الذين تحولوا إلى المسيحية لم يزد عن عشر عدد الذين تحولوا إلى الإسلام.**

هذه نظرة سريعة عن سياسة السلطات الاستعمارية في غرب أفريقيا، إزاء الإسلام والمسلمين والله أعلم.

1. Froelich, loc. cit., p. 170; Crowder op. cit., p. 357.
2. M. Crowder. West Africa Under Colonial Rule. Hutchinson of London. 1968. p. 356.
3. Trimingham. Islam in West Africa: The Report. p. 19.
4. M. Crowder. op., p. 357.
5. Thomas Hodgkin. Nationalism in Colonial Africa. London. 1926. p. 94.
6. Crowder. ibidem.
7. Crowder. ibidem.
8. J. Bertin Webster. The African Churches among the Yoruba 1888 - 1922. Oxford 1964. Chapter 11. The Causes of the African Church Movement. pp. 42-91.
9. J. F. Ade Atayi. Christian Missions in Nigeria 1841 - 1891: The Making of an Educated Elite. London 1965. pp. 253-453.
10. Geoffrey Parrinder. Religion in an African City. London. 1953.
11. Crowder. op. cit., p. 358.
12. Ayandele. The Missionary Impact on Modern Nigeria. pp. 128-150.
13. Lugard. Dual Mandate, p. 593.
14. The Times. 6th March. 1922.
15. D. Kimble. A Political History of Ghana. 1850-1928, London. 1963. p. 79.
16. Alphonse Gouillly. L'Islam dans l'Afrique Occidentale Francaise. Paris. 1952. pp. 249-250.
17. Donald Cruise O'Brien; Towards an Islamic Policy in French West Africa. 1854-1914. Journal of Arfican History. Viii. 2. (1967). p. 314.

من الأوامر الصادرة إلى المسئولين في المستوطنات الفرنسية في غرب أفريقيا. أنظر:

18. J. Brevie. Islamisme Contre Naturalisme au Soudan Francaise. Paris. 1923. p. 257.
19. Gouilly. l'Islam, p. 254.
20. L'Islam Est-il un Danger Pour Notre Colonisation en Afrique Occidentale Francaise? - A Travers le Monde. 1912. p. 221.
21. Gouilly. op. cit., p. 118-124.
22. Suret - Canal. Afrique Noire. 11. p. 541.
23. Gouilly. op. cit., p. 257.
24. Crowder. op. cit., p. 361. Gouilly. pp. 134 ff.
25. Michael Banton. West African City. London. 1957. p. 135.
26. Elliott P. Skinner. Islam in Mossi Society. in Islam in Tropical Africa. pp. 361-362.
27. Paul Catrice. L'emploi des Troupes Indigenes et leur Sejour en France. Etudes. Revue Catholique d'Interet General. No. November. 1931. p. 406.
28. Skinner. L'Islam in Mossi. p. 135.

قسمت العقيدة الهندوكية الشعب الهندي إلى أربع طبقات:

١ ـ طبقة البراهمة أو الكهنة وهم السادة. ٣ ـ طبقة الويشية أو طبقة المزارعين والتجار.
٢ ـ طبقة الأكشترية أو طبقة المقاتلين. ٤ ـ طبقة الشودرا أو طبقة المنبوذين.

ويعتقد الهندوس أن ربهم براهما خلق الطبقة الأولى من فمه، والثانية من ذراعيه والثالثة من فخذيه، أما الرابعة فمن أسفل قدميه، ومن ثم فهي منبوذة.

أما عن خبر انتشار الإسلام بين طبقة المنبوذين في الهند وتخوف الحكومة الهندية من ذلك، فقد ورد في مقال بجريدة الأهرام القاهرية العدد ٣٤٥٩٥ الصادر في أول سبتمبر ١٩٨١ بقلم محمد صالح.